



حلب: القطن والحريير والمنسوجات وشعر المعز والقهوة والفواكه وماء الورد. وكان في حلب عام 1605م/1041هـ ثلاثة وخمسون معملًا للأقمشة المقصبة. و 247 معملًا لمنسوجات الغزل. و159 معملًا للحريير. وعدد كبير من المدابغ والمصابن ومصانع الزجاج والأغباني.

ومنذ عام 1352م/753هـ نجد أن الرحالين الأوربيين يتدفقون على بلاد الشام، وبخاصة حلب بسبب دورها التجاري النشط. وفي ذلك العام قصدها القسّ الفلورنسي "جيو فاني مارينولي" وذكر أنه رأى فيها عددًا كبيراً من المسيحيين يرتدون الملابس العربية ويتحدثون الفرنسية بلهجة قبرصية. وكان ميناء فاماغوستا يعجّ بالبضائع الواردة من حلب.

كما نجد أن التنافس كان يشتد ويضعف بين الجاليات الأوربية في محاولة كل منها السيطرة على مقاليد التجارة الأوربية. وهذه الجاليات من أبرزها:

الفرنسيون، الإنكليز -الطلّيان -الهولنديون -الألمان -الأسبان -البرتغاليون.

وكان الرحالون يمثلون فعاليات مختلفة، بين رجال دين وتجار وقناصل، ومبشرين وأطباء ومبعوثين رسميين ومغامرين.

وقبل التوقف عند أبرزهم يمكن أن نذكر أسماء بعضهم، مثل:

-دارامون الفرنسي 1548م.

-أفاغار 1554م.

-راولف 1553م.

-رينيور -بالبي -دانديني 1583م.

-رالف فيتش -جون الدرد -نيوبيري 1583م.

-دوبوفو 1605م.

-دوبريف 1605م.

-دوكورمان 1621م.

-تافيرنيه 1632 -1699م.

وكانت كتابات هؤلاء الرحالين تختلف في موضوعيتها أو شططها أو عدم الدقة في معلوماتها أو تفسير الأمور حسب تصور مسبق.

وقد نتج عنها الاهتمام بدراسة اللغات الشرقية وبخاصة العربية والفارسية والتركية. كما نتج عنها الاهتمام بالمخطوطات ونقل أعداد هائلة منها إلى المدن الأوربية بالشراء أو بالتهريب. ومن أبرز من قام بذلك الإنكليزي تشارلز روبسون الذي رافق الجالية الإنكليزية 1624 -1630، كرجل دين. وقد كوّن مجموعة ثمينة من المخطوطات توجد اليوم في مكتبة "بودليان".

كما نجم عن هذه الرحلات الاهتمام بترجمة كثير من الكتب، وبخاصة كتب الرحالين العرب

وكتب البلدانيات لأبي الفداء وابن جبير وابن بطوطة وسواهم.

وخلفت لنا تلك الرحلات مجموعات من اللوحات الفنية لرحالين رسموا تلك اللوحات التي تعبر عن انطباعاتهم. ومن هؤلاء حاك كاري الفرنسي.

كما نتج عنها انتشار التبشير الكاثوليكي على حساب الكنائس الشرقية ووقوف كل من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وراء هذا الانتشار.

\*\*\*

خلال ربع قرن بعد الفتح العثماني لبلاد الشام أصبحت حلب مركزاً متوسطاً في دولة مترامية الأطراف. وهذا ما يفسر النمو السريع لعدد الخانات والأسواق وقوافل التجارة المؤلفة من آلاف الجمال.

ويذكر "لومانس" أن القافلة مهما كان حجمها فإن حمولتها تباع في يوم واحد. وأصبحت المدينة في القرن السادس عشر كأنها مخزن هائل للحرير والتوابل والمواد الطبية والبضائع الثمينة.

وفي عام 1547م / 954هـ قدر فنصل البندقية عدد سكان مدينة حلب بأربعمائة ألف نسمة. وذكر عدد من القناصل والرحالين أنها في ذلك تعتبر أكبر وأجمل وأغنى المدن العثمانية بعد استنبول. ومن حيث حجم العمل التجاري فهي الأولى. وتضم جاليات من شتى أنحاء العالم.

ويمكن أن نتوقف عند بعض الأسماء الهامة التي تركت وصفاً للعلاقات الأوروبية مع بلاد الشام. ومن هذه الأسماء:

أولاً- لوران دارفيو قنصل فرنسا في حلب اعتباراً من 1679م / 1090هـ وفي مذكراته قضايا كثيرة يمكن التوقف عندها:

آ-يصف دارفيو المدينة الواقعة على ضفتي نهر "قويق" وبساتينها وما فيها من ثمار وخضراوات، كما يصف المآكل فيها.

ب- يذكر دارفيو أن سكان حلب كانوا 290.000 نسمة في عهده منهم حوالي 30.000 مسيحي. وأن الجاليات الأجنبية بحدود 75 جالية ممثلة بقناصل أو ممثلات تجارية. وأن أهل المدينة هم الأكثر وداعة والأقل أذى والأسهل معاملة بين سكان السلطنة العثمانية.

ج-والسي المدينة باشا له ثلاث شرابات في طربوشه. وحينما يمر موكبُه يتقدم رُمح مذهب علقت فيه أيضاً ثلاث شرابات. يليه المتسلم والقاضي والمفتي ونقيب الأشراف وآغا الانكشارية وآغا الصباحية والدفتردار..

د- يحدد دارفيو المهن التي كانت معروفة في حلب في وقتها وعددها 72 مهنة.

لكل منها رئيس يدعى شيخ الكار. ويذكر أن الخانات يبلغ عددها 68 خاناً والقيساريات 187 قيسارية. أما الأسواق فحدث عنها ولا حرج، ففيها كل بضائع العالم، وهي أبنية ضخمة



ثم ينتقل الكاتبان إلى الحديث عن الجاليات الأوربية في حلب خلال القرن الثامن عشر: أنواعها - أعمالها - مساكنها - عاداتها - علاقاتها بالسكان المحليين.

وبعد ذلك يتحدثان عن السكان المحليين المسيحيين: طوائفهم - أعيادهم .. كنائسهم - أسلوب حياتهم - أعمالهم - أفراحهم - أحزانهم.

وبعد ذلك يتحدثان عن الجالية اليهودية في حلب: عددها - عبادتها - مهنتها - أعيادها - علاقاتها.

ثم يتحدثان عن الأحوال التعليمية والثقافية والكتب والمخطوطات. وعن الأحوال الصحية والاجتماعية. وعن الطقس وأحواله. وعن أنواع الحيوانات والنباتات الموجودة في حلب ومنطقتها. ولهذا كتاب أهمية بالغة يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- يغطي الكتاب تاريخ فترة هامة هي القرن الثامن عشر في حلب من وجهة نظر أوربية. ويكاد الكتاب يكون الوحيد الذي يغطي هذه الفترة.

2- المؤلفان استقادا من المنهج العلمي في تأليف الكتاب فجاء مزوداً بالإحصاءات الدقيقة، بعيداً عن الكلام المنمق المسترسل.

3- في الكتاب معلومات طبية هامة عن الأمراض التي كانت منتشرة وأسلوب معالجتها.

4- في الكتاب تحليل دقيق للعادات الاجتماعية ومقارنتها بين سكان المدينة من مسلمين ومسيحيين وجاليات أوربية. وذلك بوصف الملابس والمساكن والمأكولات والأعياد..

5- المؤلفان أقاما في حلب مدة طويلة ودخلا في عمق المجتمع الحلبى مما يجعل لكتابهما مصداقية معقولة. وقد اتصف الكتاب عموماً بالموضوعية والبعد عن التصورات المسبقة.

6- إن الكلام عن مدينة حلب في تلك الفترة يعتبر مثلاً يمكن تطبيقه على المدن الأخرى كدمشق وبغروت والقاهرة وطرابلس. لأن الظروف العامة والتركيبية السكانية والعادات كانت متقاربة إلى حد كبير.

7- إن الكتاب مثال حي على العلاقات المتبادلة والمتشابكة بين طرفي المتوسط. تلك العلاقات التي تمثل مدينة حلب مركزاً بارزاً فيها بسبب ثقلها التجاري ومركزها الاستراتيجي وعمقها التاريخي.

8- يشير الكتاب بوضوح إلى مدى التسامح والتفاهم في العيش المشترك الذي عرفته الطوائف والعناصر السكانية المختلفة في مدينة حلب. وهي بذلك نموذج للمدينة الشرقية والعربية والإسلامية التي احتضنت عدداً كبيراً من الجاليات الأوربية والأجنبية والقناصل والتجار ورجال الدين في جو من التفاهم المشترك. ولا تزال المدينة حتى اليوم نموذجاً لهذا التفاهم المشترك.

وهي تضم حالياً 11 طائفة مسيحية لكل واحدة منها مطرانيته واستقلالها الذاتي في إطار النظام العام للبلاد.

\*\*\*

ثالثاً: يمكن أن نشير إلى عدد من الكتابات التي تتحدث عن التواصل الحضاري و الثقافي بين أوروبا وبلاد الشام. تلك الكتابات التي تمثل وجهة النظر الأوروبية. ومنها:

-نيهور الدانمركي الذي زار حلب 1766. وتحدث عن انطباعاته عن المدينة وسكانها.

-بوكوك الإنكليزي 1783 وقد ألف كتاباً بعنوان: "رحلة إلى سوريا ومصر" فيه حديث مطول عن مدينة حلب. وقال إن حلب أنظف مدينة في السلطنة وأجملها بناءً وألطفها عشرة وأصحبها مناخاً. وأهلها أكثر سكان السلطنة تمدناً. وذكر "قولني" أن المدينة كانت تستعمل الحمام الزاجل في المراسلات مع بغداد والاسكندرونة.

-دي كورانسز الفرنسي الذي كان قنصل بلاده في حلب 1802-1808 وأكد المعلومات السابقة حول نظافة المدينة ودورها التجاري.

-جان باتيست الفرنسي 1808م 1223هـ وكان في حملة بونابرت. وكان والده تاجر مجوهرات يقيم في حلب. وقد وصف المدينة وما حولها.

نستخلص من هذه الدراسة الموجزة بعض الملاحظات التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

1-نقل الرحالون والقناصل والتجار كثيراً من العادات السائدة في بلاد الشام إلى بلادهم مثل: -شرب القهوة.

-الجلوس في المقاهي. ويذكر أن أول مقهى أسس في أكسفورد على غرار مقاهي حلب. بينما أسس أول مقهى في مرسيليا عام 1654.

-التنوع في الطعام والتفنن في التوابل.

-التفنن في الملابس.

-التفنن في الأثاث والسجاد والتحف.

-حفلات السمر والطرب.

-الملابس الحريرية.

2-انتقلت عشرات ألوف المخطوطات من المدن العربية وبخاصة حلب إلى المكتبات الأوروبية بفعل الرحالين والتجار والقناصل ورجال الدين.

3-تمكنت الإرساليات الكاثوليكية من الدخول بعمق في مجتمع بلاد الشام وبخاصة حلب. وتراجع دور الكنيسة الشرقية التي كانت صاحبة الكلمة المطلقة.

4-كان التأثير متبادلاً في طراز البناء، وفي الحياة العامة.

ويمكن الحديث عن رحلة من نوع آخر، قام بها رحالة حلبى يدعى فتح الله الصايغ. وقد نشرها لامارتين بالفرنسية. ويعود تاريخ الرحلة إلى 1790.

ويقول صاحبها:

"أقول، أنا الفقير إلى الله فتح الله ولد انطوان الصايغ من سكان حلب الشهباء المحروسة فحين بلغت من العمر 18 سنة أردت أن أتعاطى البيع والشراء سعياً وراء أرباح التجارة، فأخذت جانب رزق من حلب وتوجهت إلى جزيرة قبرص وابتدأت أبيع وأشتري مع تجارها، وذلك ابتداء من 1808م إلى 1809م فرأيت أنه من المستحسن أن أبعث إرسالية إلى تريبستا من بضائع قبرص واستأجرت مركباً، والشحنة من نبيذ وقطن وحرير وإسفنجة وحنظل، وسافر ذلك المركب 28/3/1809م وبعد سفره بأيام التقى بمركب إنجليزي فأخذه غنيمة وقاده إلى مالطا، فحين بلغني ذلك اشتد عليّ القهر، ثم قومت حساباتي فوجدت أحوالي متأخرة جداً، فاضطرت أن أغادر قبرص فتوجهت إلى بلدي حلب".



## أهم المراجع

- هولندا والعالم العربي - فان دام وآخرون.
- وثائق تاريخية عن حلب - فرديناند تونل.

- تاريخ حلب الطبيعى - الأخوان راسل.
- الجاليات الأوربية في بلاد الشام - نيلى صباغ.
- رحلة فتح الله الصايغ الحلبي - يوسف شلحد.
- موسوعة حلب المقارنة - الأسدي.

